MINISTÈRE DE L'ÉDUCATION NATIONALE, DE L'ENSEIGNEMENT SUPÉRIEUR ET DE LA RECHERCHE



AnIsl 42 (2008), p. 25-47 ar.

ʿABD AL-NABĪ (Hiba Maḥmūd Saʿd)

[illegible] . Al-zawāǧ fī usar salāṭīn al

هبة محمود سعد عبد النبى

الزواج في أسر سلاطين المماليك

إن الزواج سنة كونية دقيقة واسعة المدى، تتماشى وفطرة الإنسان؛ فمن خلال الزواج يكمل الرجل حاجته إلى المرأة وتكمل المرأة حاجتها إلى الرجل. والحديث عن الزواج يرتبط بكثير من التفاصيل حول عادات الزواج، وكيفية اختيار الزوج، والعلاقة بين أفراد الأسرة، واحتفالات الزواج، وغيرها. وبرغم اهتمام المؤرخين بالحياة الاجتماعية للعصر المملوكي، وإشاراتهم للاحتفالات المختلفة في هذا العصر، وطبقات المجتمع والعلاقات بينهم، والأمراض الاجتماعية التي ظهرت في ذلك الوقت، وغيرها من الجوانب الاجتماعية، إلا أن الحياة الخاصة لسلاطين المماليك ظلت في كثير من الأحيان مبهمة. إذ جاءت إشارات المؤرخين محدودة عن زوجات السلاطين وأبنائهم والعلاقات بينهم. كذلك أغفلت كثير من المراجع الحديثة الإشارة إلى الحياة الخاصة لسلاطين المماليك وعلاقة السلطان بأفراد أسرته وأزواج بناته وزوجات أبنائه. واكتفت كثير من المراجع بالإشارة إلى أن المماليك كانوا طبقة منعزلة عن سائر الشعب؛ فلم يتزوجوا منهم، بل اختاروا زوجاتهم وجواريهم من بنات جنسهم[١]. أما الدراسات التي كان بها مزيد من التفاصيل فقد أشارت بعضها إلى بعض عادات الزواج لدى سلاطين المماليك، ومظاهر الاحتفال بالزواج، ونفوذ بعض زوجات السلاطين[٢]، والبعض الآخر أشارت إلي ظاهرة تعدد الزوجات وتملك العديد من الجواري والتي كانت شائعة بين كثير من السلاطين[٣].

١. على إبراهيم حسن، دراسات في تاريخ المماليك البحرية وفي عصر الناصر محمد بوجه خاص، ط٢، ص٢٤؛ وليم موير، تاريخ دولة المماليك في مصر، ص٢٠٣؛ قاسم عبده قاسم، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، ص١٦؛ عصر سلاطين المماليك، ط١، ص١١؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ط٣، ص٣٢٠؛ محمود الحويري، مصر في العصور الوسطى، ط١، ص٢٤٠.

٢. أحمد عبد الرازق أحمد، المرأة في مصر المملوكية، ص٥٣-٩٧. محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، ط١، المجلد السابع، ص٢٩٦-٢٩٨

٣. سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص١٢٨.

لذا يبدوجلياً أن عادات الزواج لدى سلاطين المماليك والعلاقات الأسرية موضوع يحتاج إلى مزيد من الدراسة والبحث؛ ومن ثم جاء هذا البحث ليكمل الدراسات السابقة، ويلقي مزيداً من الضوء حول الزواج في أسر سلاطين المماليك. كما يهدف البحث إلى الإجابة عن كثير من التساؤلات مثل: كيف كان سلاطين المماليك يختارون زوجاتهم؟ وكيف كانوا يختارون أزواج بناتهم وزوجات أبنائهم؟ هل كانت مصاهرة السلطان تؤثر على نفوذ الأمراء بالسلب أو بالإيجاب؟ هل استخدم الزواج كوسيلة للوثوب إلى العرش أو تحقيق أهداف سياسية؟ هل كان هناك زواج سياسي في العصر المملوكي؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات اعتمد البحث على ما توفر من معلومات وإشارات في كثير من المصادر المملوكية (حوليات وتراجم)، وعلى تحليل كثير من الأحداث التي ارتبطت بحياة سلاطين المماليك. ويمكن تناول هذا الموضوع من خلال تناول كل فرد من أفراد الأسرة على حدة حتى يسهل الإجابة عن الأسئلة السابقة الذكر.

السلطان المملوكي وزوجاته

على الرغم من أن السلطان المملوكي كان أهم شخصية في البلاد وكان محط الأنظار والاهتمام، إلا أن المؤرخين عنوا بالأحداث السياسية أكثر من عنايتهم بالحياة الشخصية للسلطان. فجاءت إشاراتهم لزوجات السلاطين وسراريهم مقتضبة؛ إذ خلت المصادر – في كثير من الأحيان – من ذكر عدد زوجات كل سلطان، وتاريخ زواجه من كل زوجة، وعدد السراري والحظيات. وبالرغم من ذلك فإن الإشارات المحدودة التي أمكن تتبعها كشفت الستار عن كثير من الأمور الشيقة في حياة سلاطين المماليك:

زوجة واحدة أم عدة زوجات

من الواضح أن تعدد الزوجات كان هو السمة الأكثر شيوعاً في أسر سلاطين المماليك، ويبدو أن ذلك كان بهدف الإنجاب وتكوين أسرة كبيرة تضم العديد من الأبناء التي قد تتاح الفرصة لأحدهم للوصول إلى العرش. ووفقاً لما توفر لدينا من المصادر يتضح أن كثيراً من السلاطين كان لهم أكثر من زوجة، مثل:الناصر محمد بن قلاوون[٤]، والصالح

٤. الزوجة الأولى للناصر محمد كانت خوند أردوتكين ابنة نوغية أو نوكاي: المقريزي،الخطط، مجلد ٣، ص١٦٤؛ مجلد٤/ ق ٢، ص٧٨٦. ثم تزوج طغاي وصارت خوند الكبرى (بعد سنة ٧١٧هـ/ ١٣١٧م) وأنجبت له ولده أنوك: المقريزي، السلوك، جـ٢/ ق ١، ص٢٣١–٢٣٢؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ٩، ص٧٤؛ ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ط٢، جـ١/ ق١، ص٤٥٢. انظر ترجمة خوند طغاي عند: المقريزي، السلوك، جـ٢/ ق٣، ص٧٩٤؛ الخطط، مجلد٤/ ق٢، ص٧٨٦–٧٨٨؛ ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، جـ٢، ص٣٢١؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ ١٠، ص٢٣٨. كما تزوج الناصر محمد سنة ٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م من خوند طلنباي أو دلنبية بنت أزبك خان: المقريزى، السلوك، جـ٢/ ق١، ص٢٠٣–٢٠٥؛ الخطط، مجلد٣، ص٢١٤–٢١٦؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١/ ق١، ص٤٥١.ثم تزوج ابنة تنكز نائب الشام وانجبت له ولده صالح: المقريزي، السلوك، جـ٢/ ق٢، ص٤٦٠–٤٦٢؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ٩، ص١١٩. وقد أشار المقريزي أيضاً إلى أن الناصر محمد تزوج أخت الأمير قوصون: الخطط، مجلد٤/ ق١، ص٢٢٦.

إسمـــاعيل بن الناصـر محمد بن قلاوون[٥]، والكامل شـعبان بن الناصـر محمد بن قلاوون[٦]، والأشرف شعبان بن حسين[٧]، والظاهر برقوق[٨]، والمؤيد شيخ[٩]، والأشرف برسباي[١٠]، والظاهر جقمق[١١].

٥. الصالح إسماعيل تزوج ابنة الأمير أحمد بن بكتمر الساقي من بنت تنكز سنة ٧٤٣هـ/ ١٣٤٢م: المقريزي، السلوك، جـ٢/ ق٣، ص٦٢٣. ثم تزوج ابنة طقزدمر الحموي في السنة التالية: المقريزي، السلوك، جـ٢/ ق٣، ص٦٥١. كما تزوج ابنة بكتمر الساقي: المقريزي، السلوك، جـ٢/ ق٣، ص٦٨٣؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص١١٩.

٦. الكامل شعبان تزوج ابنة بكتمر الساقي سنة ٧٤٦هـ/ ١٣٤٥م: المقريزي، السلوك، جـ٢/ ق٣، ص٦٨٣؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص١١٩. ثم تزوج بنت طقزدمر الحموي في نفس العام: المقريزي، السلوك، جـ٢/ ق٣، ص٦٩٠. ثم تزوج ابنة تنكز التي كانت زوجة أخيه؟: المقريزي، السلوك، جـ٢/ ق٣، ص٧٢٠؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٠، ص١٥٣. وأعتقد أن المقصود هنا ابنة بنت تنكز لأن المقريزي سبق أن ذكر أن الصالح إسماعيل تزوج ابنة الأمير أحمد بن بكتمر من بنت تنكز، فيبدو أنها هي المقصودة وأن الكامل شعبان تزوجها أيضاً بعد أخيه.

٧. أشار المقريزي إلى أن الأشرف شعبان كانت له ثلاث زوجات هن: خوند الكبري ابنة عمه السلطان حسن، وابنة الأمير تنكز بغا، وابنة الأمير طغاي تمر النظامي، وقد طلقهن جميعاً سنة ٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م: السلوك، جـ٣/ ق١، ص٢٥٦. كما كانت ابنة منكلي بغا الشمشي أيضاً زوجة له، وتوفيت في نفس العام: السلوك، جـ٣/ ق١، ص٢٦٣.

٨. الظاهر برقوق تـزوج فاطمة ابنة منجك اليوسفي سنة ٧٨٦هـ/ ١٣٨٤م: المقريزي، السلوك، جـ٣/ ق٢، ص٥١٣؛ الصيرفي، نزهة النفوس، جـ١، ص٩٤؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١/ ق٢، ص٣٤٥. ثم تزوج هاجر ابنة منكلي بغا الشمسي سنة ٧٨٨هـ/ ١٣٨٦م: المقريزي، السلوك، جـ٣/ ق٢، ص٥٤١؛ الصيرفي، نزهة النفوس، جـ١، ص١٢٧؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١/ ق٢، ص٣٦٨. انظر ترجمة هاجر عند: المقريزي، السلوك، جـ٤/ ق٢، ص٨٤٧؛ الصيرفي، نزهة النفوس، جـ٣، ص٢١١؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص١٣٤. كما تزوج شيرين أخت تغري بردي (أو ابنة عمه) وأنجبت له ولده فرج، انظر ترجمتها عند: ابن تغري بردي، المنهل الصافي، جـ٦، ص٣١٦؛ الدليل الشافي، جـ١، ص٣٤٨؛ الصيرفي، نزهة النفوس، جـ٢، ص٦٩؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ١٢، ص٦٩. وفي سنة ٧٩٤هـ/ ١٣٩١م تزوج بنت الأمير علي بن أسندمر نائب الشام: ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١/ ق٢، ص٤٤٩. وفي نفس العام تزوج ابنة الشهابي أحمد بن الطولوني معلم المعلمين: المقريزي، السلوك، جـ٣/ ق٢، ص٧٦٣؛ ابن تغري بردي، الدليل الشافي، جـ١، ص١٠٠؛ الصيرفي، نزهة النفوس، جـ١، ص٣٤٣؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١/ ق٢، ص٤٥١. وفي عام ٧٩٦هـ/ ١٣٩٤م تزوج تندي بنت الحسين بن أويس سلطان بغداد: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٢، ص٥٢؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١/ ق٢، ص٤٦٦؛ انظر ترجمة تندي بنت حسين عند: السخاوي، الضوء اللامع، جـ١٢، ص١٦؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، جـ٧، ص٢٨٦. كذلك ذكر السخاوي أن الظاهر برقوق تزوج أرطو ولم يذكر أية معلومات عنها: الضوء اللامع، جـ١٢، ص٦.

٩. كان متزوجاً من خوند خديجة في أيام إمرته واستمرت معه بعد أن تسلطن وعرفت بخوند قاعة رمضان: ابن تغري بردي، المنهل الصافي، جـ٥، ص٢٠٢. كما تزوج خوند زينب ابنة الظاهر برقوق: انظر ترجمتها عند ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٥، ص١١٧؛ الصيرفي، نزهة النفوس، جـ٣، ص٣٩، حاشية (٣). كذلك تزوج خوند سعادات بنت صرغتمش وأنجبت له ولده أحمد: المقريزي، السلوك، جـ٤/ ق١، ص٤٩٢؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص٤٧؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ١٢، ص٦٢. كما تزوج ابنة تنم الحسني وأنجبت له ولده محمد: المقريزي، السلوك، جـ٤/ ق١، ص٤٥٢.

١٠. الزوجة الأولى لبرسباي كانت فاطمة بنت قجا وقد ظلت خوند الكبرى حتى توفيت سنة ٨٢٧هـ/ ١٤٢٤م، وكانت أم ولده محمد. انظر ترجمتها عند: المقريزي، السلوك، جـ٤/ ق٢، ص٦٧٤؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٥، ص١٢٣؛ الصيرفي، نزهة النفوس، جـ٣، ص٦٣؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ١٢، ص٩٩؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص٩٢. بعد ذلك تزوج جلبان التي أنجبت له ولده يوسف وصارت خوند الكبرى: المقريزي، السلوك، جـ٤/ ق٢، ص٩١٣؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٤، ص٣٥٤؛ الصيرفي، نزهة النفوس، جـ٣، ص٥٢. انظر ترجمة جلبان عند: المقريزي، السلوك، جـ٤/ ق٢، ص٩٨٥؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٦، ص٣٢٦-٣٢٧؛ المنهل الصافي، جـ٥، ص١٤-١٦؛ الدليل الشافي، جـ١، ص٢٤٩؛ الصيرفي، نزهة النفوس، جـ٣، ص٣٦١؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ١٢، ص١٧. ومن زوجات برسباي أيضاً فاطمة بنت ططر التي ورد ذكرها عند: المقريزي، السلوك، جـ٤/ ق٢، ص٩٤٦؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٥، ص٦٠؛ الصيرفي، نزهة النفوس، جـ٣، ص٣١٨؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص١٦٢. أنظر ترجمة فاطمة بنت ططر عند: السخاوي، الضوء اللامع، جـ١٢، ص٩٢؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص٣٨. ذكر ابن إياس أيضاً أن الأشرف برسباي تزوج أيضاً خوند بنت الأتابكي يشبك الأعرج؟ وخوند التركمانية ابنة عثمان متملك الروم: ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص١٩٠. انظر ترجمة خوند التركمانية عند: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٦، ص١٧٨؛ حوادث الدهور، ط١، جـ٢، ص٥٥٩-٥٦١؛ الدليل الشافي، جـ١، ص٣١٦؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ١٢، ص٣٧.

١١. الظاهر جقمق تزوج مغل بنت البارزي وكان ما يزال أميراً واستمرت زوجته بعد سلطنته، حتى طلقها سنة ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٥، ص٣٨٢؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص٢٠٠، ٢٦٣. انظر ترجمة خوند مغل عند: الصيرفي، إنباء الهصر، ص٤٢٦، ص٤٦٤-٤٦٧؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ١٢، ص١٢٦؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص٧٠. في عام ٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م تزوج الظاهر جقمق من زينب ابنة جرباش الكريمي: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٥، ص٤٦٤؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص٢٢٣. انظر ترجمتها عند: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٦، ص٢١٥؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص٣٥٨.

أما أن يكون للسلطان زوجة واحدة فيبدو أن هذا كان أمراً مستغرباً في ذلك الوقت، أو على الأقل أمراً يستحق الإشارة إليه والتوقف عنده. فنجد أن الأشرف إينال «لم يتزوج سوى أم أولاده زينب بنت خاص بك» – على حد قول ابن إياس[١٢]. وقد توقف ابن تغري بردي عند هذا الأمر، وعلق عليه بقوله: «وكونه منذ تزوج بها من حدود سنة خمس وعشرين إلى يومنا هذا لم يتزوج بغيرها، حتى ولا تسرّى أبداً أميراً ولا سلطاناً، وهذا شيء لم نعهد مثله في سالف الأعصار، فإن عادة الملوك الزواج بأربع نسوة، وأما الحظيات فكثير»[١٣]. وبالمثل علق السخاوي على نفس الأمر بقوله: «تزوجها إينال الأجرود في إمرته في حدود سنة خمس وعشرين وثمانمائة بعد أخت لها ماتت تحته، ولم ينفك عنها ولا بعد تملكه، حتى مات، ولم يتزوج عليها بل ولا تسرّى، وكل أولاده – المؤيد أحمد وغيره – منها بحيث انفرد عن سائر الملوك بذلك»[١٤].

كذلك كان للظاهر خشقدم زوجة واحدة هي خوند شكرباي الجركسية الناصرية، التي قال عنها السخاوي في ترجمتها: «تزوجها خشقدم وهو حينئذ خاصكي، فاستولدها ثلاثة، ودامت معه حتى تسلطن وصارت خوند العظمي، وراعى قدمها، فلم يتزوج عليها بل تسري بعدة سرارٍ صرن أمهات أولاده، مع انعزاله عنها ومزيد اختصاصها ومحبتها إلى أن ماتت وقد قاربت الثمانين»[١٥]. وأيضاً السلطان قايتباي كان له زوجة واحدة هي فاطمة ابنة العلاي علي بن خاص بك، التي استمرت معه إلى أن مات وأنجبت له ولداً وبنتاً، كلاهما توفيا في حياته[١٦].

وإذا كانت هذه الأمثلة أشار فيها المؤرخون صراحة إلي أن السلطان كان له زوجة واحدة فقط، فإن ثمة مصادر تشير إلى أن بعض السلاطين كان لكل منهم زوجة واحدة فقط، دون التصريح بأنها الزوجة الوحيدة؛ لذا فنحن لا ندري على وجه اليقين ما إذا كانت الزوجة المذكورة هي الزوجة الوحيدة للسلطان أم أنها أهم الزوجات، ومن ثم أغفلت المصادر ذكر الآخرين. من هؤلاء السلاطين الناصر حسن، إذ لم تشر المصادر إلا لزوجته خوند طولوبية[١٧]، والناصر فرج بن برقوق لم نعرف عنه سوى زوجته فاطمة ابنة تغري بردي[١٨]. كذلك لم نعرف عن الناصر محمد بن قايتباي سوي زوجته مصرباي الجركسية[١٩]، وعن جان بلاط زوجته أصل باي الجركسية[٢٠]. وكذلك لم يصلنا عن زوجات العادل طومان باي سوى خوند فاطمة ابنة العلاي علي بن خاص بك[٢١].

وفي العام التالي تزوج نفيسة ابنة ناصر الدين محمد بن دلغادر: المقريزي، السلوك، جـ٤/ ق٣، ص١١٨٧؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٥، ص٣٣٧–٣٣٨؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص٢٢٣. انظر ترجمة نفيسة بنت دلغادر عند: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٥، ص٥٤٢؛ حوادث الدهور، جـ١، ص٢٣٦؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ١٢، ص١٣٠؛ التبر المسبوك، جـ٢، ص٢٢٥. كما تزوج شاه زاده بنت عثمان ملك الروم: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٥، ص٤٦٤. انظر ترجمتها عند: ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص٣٢٩. كذلك تزوج الظاهر جقمق كل من: ابنة حمزة بك بن ناصر الدين بن دلغادر، وابنة كرتباي الجركسية: ابن تغري بردي، حوادث الدهور، جـ٢، ص٢٢٤؛ السخاوي، التبر المسبوك، جـ٢، ص١٨٢؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص٢٧٦/ وابنة الزيني عبد الباسط: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٥، ص٤٦٤؛ السخاوي، التبر المسبوك، جـ٣، ص٩٠؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص٢٨٩.

١٢. ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص٣٦٧.

١٣. ابن تغري بردي، حوادث الدهور، جـ٢، ص٥٢٥.

١٤. السخاوي، الضوء اللامع، جـ١٢، ص٤٤.

١٥. السخاوي، الضوء اللامع، جـ١٢، ص٦٨. انظر أيضاً: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ ١٦، ص٣٤٦؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص٤٣٥.

١٦. الصيرفي، إنباء الهصر، ص٦٠؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص٣٢٦ وترجمه فاطمة: جـ٤، ص٦٤. ويذكر ابن إياس أن محمد بن قايتباي كان من سريته أصل باي.

١٧. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١١، ص٦. انظر ترجمة خوند طولوبية عند: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١١، ص٨٤؛ الدليل الشافي، جـ١، ص٣٧٤–٣٧٥؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١/ ق٢، ص١٥.

١٨. المقريزي، السلوك، جـ٣/ ق٣، ص١١٧٤؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٣، ص٤١؛ المنهل الصافي، جـ٤، ص٣٩.

١٩. ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص٣٩٩.

٢٠. ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص٤٢٨–٤٢٩.

٢١. ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص٤٦٩.

الزواج بهدف توطيد علاقات سياسية خارجية

شهد العصر المملوكي بعض حالات الزواج الذي يمكن أن نطلق عليه اسم «الزواج السياسي»؛ حيث يهدف إلى توطيد علاقة السلطان المملوكي مع بعض حكام البلاد المجاورة من خلال المصاهرة. أو قد يكون زواج السلطان بابنة حاكم البلاد المجاورة بهدف ضمان ولائه وموالاته للسلطان المملوكي.

أول وأوضح الأمثلة لهذه الزيجات نجدها في سيرة الملك الناصر محمد بن قلاوون؛ فقد أراد أن يرسي دعائم السلام بينه وبين أزبك ملك التتار، فأرسل إليه يخطب بنتاً من الذرية الجنكزية. وقد وافق أزبك وأرسل إليه ما يشبه الخطة لتحقيق هذا السلام، ويكون الزواج جزء منها وهي: «سنة سلام، وسنة خطبة، وسنه مهاداة، وسنة زواج»[٢٢]. وبعد تبادل المراسلات والمناقشات قام أزبك بإرسال العروس إلى مصر، وكان ذلك عام ٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م. ومن المهم في هذا السياق أن نعرض ما ذكره المقريزي حول رسالة أزبك إلى الناصر محمد، ورد الناصر عليه، إذ يقول: «وفي يوم الاثنين ثاني ربيع الآخر جلس السلطان للرسل، وحضر كبيرهم ابينار...فبلغ السلام. وقال: أخوك أزبك، أنت سيرت طلبت من عظيم القان بنتاً، فلما لم يسيرها لم يطب خاطرك، وقد سيرنا لك من بيت كبير، فإن أعجبتك خدها بحيث لا تخلي عندك أكبر منها، وإن لم تعجبك فاعمل بقوله تعالي: إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها. فقال السلطان: نحن ما نريد الحسن وإنما نريد كبر البيت والقرب من أخي، ونكون نحن وإياه شيئا واحدا»[٢٣]. وفي هذا الرد إشارة واضحة وصريحة إلى أن هذا الزواج سياسي بحت.

وهناك مثال آخر للزواج السياسي في عصر الظاهر برقوق؛ فعندما هاجم تيمورلنك بغداد عام ٧٩٥هـ/ ١٣٩٣م فر القان أحمد بن أويس صاحب بغداد ورحل بأمواله وأولاده إلى مصر. وعندما وفد إلى مصر أحسن الظاهر برقوق استقباله واستضافته، ثم عقد على تندي ابنة أخي القان أحمد، والتي حضرت مع عمها وتزوجها[٢٤]. وكان هذا الزواج بمثابة مساندة من الظاهر برقوق للقان أحمد، وتأكيداً لأواصر العلاقة بين البلدين. وهناك مثال ثالث يتضح في علاقة الظاهر جقمق مع صاحب الأبلستين ناصر الدين محمد بن خليل بن قراجا بن دلغادر؛ إذ كان كثير الفتن والخروج عن طاعة السلطان. وقد اتفق ناصر الدين مع الأتابك جانبك الصوفي على الخروج عن طاعة السلطان والمشاققة، وتزوج جانبك ابنة ناصر الدين «نفيسة» واستولدها بنتاً ثم فارقها. ثم قرر ناصر الدين الدخول في طاعة السلطان، فجاء إلى مصر ومعه ابنته، فأحسن السلطان جقمق استقباله وتزوج ابنته، وكان ذلك في عام ٨٤٣هـ/ ١٤٣٩م[٢٥]. فكان هذا الزواج بمثابة تأكيد على طاعة ناصر الدين بن دلغادر للسلطان وولائه له. ثم كان للظاهر جقمق موقف مشابه مع ابنة كرتباي أمير بلاد الجاركس الذي وفد إلي مصر سنة ٨٥٣هـ/ ١٤٤٩م فأسلم هو وابنته، وتزوجها السلطان[٢٦].

٢٢. المقريزي، الخطط، مجلد٣، ص٢١٤.

٢٣. المقريزي، السلوك، جـ٢/ ق١، ص٢٠٣-٢٠٥؛ زينب فواز، الدر المنثور، جـ٢، ص٣٨-٣٩.

٢٤. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٢، ص٤٤، ص٥٢؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١/ ق٢، ص٤٦٦. انظر ترجمة تندي بنت الحسين بن أويس عند: السخاوي، الضوء اللامع، جـ١٢، ص١٦؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، جـ٧، ص٢٨٦.

٢٥. المقريزي، السلوك، جـ٤/ ق٣، ص١١٨٥، ص١١٨٧؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٥، ص٣٣٧-٣٣٨؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص٢٢٣. ولكن يذكر السخاوي أن السلطان هو الذي طلب الزواج من نفيسة فجاء بها والدها إلى مصر بناء على طلبه وتزوجها السلطان واستمرت عنده حتى ماتت: السخاوي، الضوء اللامع، جـ١٢، ص١٣٠؛ التبر المسبوك، جـ٢، ص٢٢٥. ونفس المعنى ورد عند: ابن تغري بردي، حوادث الدهور، جـ١، ص٢٣٦.

٢٦. ابن تغري بردي، حوادث الدهور، جـ١، ص٢٢٤؛ السخاوي، التبر المسبوك، جـ٢، ص١٨٢؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص٢٧٦.

ومن بنات الملوك أيضاً اللاتي صرن من زوجات سلاطين المماليك شاه زاده بنت الأمير أرخن بك بن محمد بن كرشجي بن عثمان ملك الروم، فهي رومية الأصل والمولد، إلا أنها جاءت إلى مصر مع أخيها سليمان وأنزلها الأشرف برسباي الدور السلطانية وتربت فيها، وعندما كبرت تزوجها برسباي، ثم تزوجها من بعده الظاهر جقمق[٢٧].

زوجة السلطان السابق

يفهم من المصادر المملوكية أن زواج السلطان من زوجة سلطان سابق له كان أمراً شائعاً في أسر سلاطين المماليك، وقد تكرر كثيراً. وكان لأبناء الناصر محمد حظ وافر من هذه العادة؛ فنجد أن ابنة بكتمر الساقي قد عقد عليها أنوك ابن الناصر محمد، ومات عنها وهي بكر، فتزوجها من بعده أخوه السلطان المنصور أبو بكر، وبعد أن قتل تزوجها أخوه الصالح إسماعيل ومات عنها أيضاً، ومن بعده تزوجها أخوه الملك الكامل شعبان ودخل بها[٢٨]. ونفس الشيء بالنسبة لابنة الأمير طقزدمر الحموي، إذ عقد عليها أبو بكر ابن الناصر محمد بن قلاوون في حياة والده[٢٩]، ثم تزوجها من بعده أخوه الملك الصالح إسماعيل عام ٧٤٤هـ/ ١٣٤٣م[٣٠]، ومن بعده تزوجها الملك الكامل شعبان عام ٧٤٦هـ/ ١٣٤٥م[٣١] وكأن كلاً منهم كان يرث أخيه في منصبه وفي زوجاته أيضاً.

كذلك فإن الظاهر جقمق تزوج خوند شاه زاده بنت عثمان، التي كانت زوجة للأشرف برسباي من قبله[٣٢]. وأيضاً قانصوة الأشرفي تزوج مصرباي الجركسية والتي كانت زوجة ابن أخته والسلطان السابق له الناصر محمد بن قايتباي[٣٣]، وطومان باي تزوج خوند فاطمة ابنة العلاي علي بن خاص بك والتي كانت زوجة الأشرف قايتباي من قبله[٣٤].

السراري والمحظيات

شاع في العصر المملوكي أن يملك السلطان الكثير من السراري والمحظيات اللائي يتسرّي بهن[٣٥]، وعندما تنجب إحداهن من السلطان تعرف باسم «أم ولد»[٣٦]، وقد يتزوجها السلطان، وقد تظل على حالها.

وقد اشتهرت بعض سراري سلاطين المماليك ومحظياتهم وعرفن في التاريخ؛ حيث أشار إليهن المؤرخون وذكروهن في حولياتهم. فمنهن من عرفت واشتهرت بسبب حب السلطان لها وتقريبه إياها، ومنهن من عرفت بنفوذها وكلمتها

٢٧. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٦، ص١٧٨؛ حوادث الدهور، جـ٢، ص٥٥٩-٥٦١؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ١٢، ص٣٧.
٢٨. المقريزي، السلوك، جـ٢/ ق٣، ص٦٨٣؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٠، ص١١٩.
٢٩. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ٩، ص١١٥.
٣٠. المقريزي، السلوك، جـ٢/ ق٣، ص٦٥١.
٣١. المقريزي، السلوك، جـ٢/ ق٣، ص٦٩٠.
٣٢. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٦، ص١٧٨؛ حوادث الدهور، جـ٢، ص٥٥٩-٥٦١؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ١٢، ص٣٧.
٣٣. ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص٤٢٦.
٣٤. ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص٤٦٩.
٣٥. يذكر ابن تغري بردي أن عددهن قد يصل إلى أربعمائة: حوادث الدهور، جـ٢، ص٥٢٥.
٣٦. المقريزي، السلوك، جـ٤/ ق٢، ص٩٠٠؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٢، ص١٠٦؛ المنهل الصافي، جـ٦، ص٣١٦.

المسموعة عند السلطان. من هؤلاء السراري اتفاق العوادة، التي كانت جارية سوداء لدى السلطان الصالح إسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون، ورغم ذلك فقد أغرم بها السلطان، وكان يبسط لها يده بالعطاء[٣٧]. ومن بعد الصالح إسماعيل أغرم أخوه الكامل شعبان أيضاً باتفاق العوادة، وصار لها مكانة كبيرة، وكان لها جوارٍ وخدم. وقد أنجبت للكامل شعبان ولداً سماه شاهنشاه وسر به سروراً عظيماً ثم تزوجها سراً في شوال ٧٤٧هـ/ ١٣٤٧م[٣٨].

ومن أمهات أولاد الظاهر برقوق اللاتي اشتهرن في التاريخ شيرين الرومية – ابنة عم تغري بردي – التي أنجبت للظاهر برقوق ولده فرج. ولم تحظ شيرين بالمكانة العالية إلا بعد موت الظاهر برقوق وسلطنة ولده فرج؛ إذ صارت شيرين خوند الكبرى، وسكنت قاعة العواميد بقلعة الجبل[٣٩]. وبالمثل حدث مع قنق باي التركية الظاهرية التي حظيت عند الظاهر برقوق وأنجبت له ولده عبد العزيز. غير أنها لم تحظ بالمكانة الرفيعة والمقام العالي إلا بعد أن تسلطن ولدها عبد العزيز؛ فصارت هي خوند الكبرى وسكنت قاعة العواميد[٤٠]. وعرف في عصر الأشرف برسباي محظيته ملكباي التي أنجبت ولده محمد[٤١]. أما سورباي الجركسية حظية السلطان الظاهر جقمق فقد كان لها مكانة كبيرة عنده، حتى أنها عندما توعكت نقلها إلى الحجازية ببولاق للنزهة والاستشفاء، لكنها ماتت هناك، فأسف عليها السلطان أسفاً عظيماً وأعد لها جنازة حافلة، مشي فيها مع الأمراء المقدمين الألوف حتى دفنت[٤٢]. وقيل أيضاً أنه طلق زوجته خوند الكبرى مغل بنت البارزي؛ لاتهامها بسحر سورباي؛ مما تسبب في وفاتها[٤٣]. وهذا إن دل على شيء يدل على مكانة سورباي عند السلطان.

كذلك كان للظاهر خشقدم عدة سرار ولكن لم نعرف منهن سوى سورباي أو سوار باي الجركسية، أم ابنته، وقد تزوجها خشقدم بعد وفاة زوجته خوند شكرباي الأحمدية عام ٨٧٠هـ/ ١٤٦٦م وجعلها خوند الكبرى صاحبة القاعة[٤٤]. أما الأشرف قايتباي فقد عرفت سريته أصل باي لأنها أنجبت ولده محمد الذي تسلطن بعده. ثم زادت مكانة أصل باي عندما تزوجها جان بلاط، وصارت خوند الكبرى عندما تسلطن الأخير[٤٥]. وبذلك كانت أصل باي أم سلطان – وهو الناصر محمد بن قلاوون – وأخت سلطان – وهو قانصوة الأشرفي – وزوجة سلطان – وهو الأشرف جان بلاط[٤٦].

٣٧. المقريزي، السلوك، جـ٢/ ق٣، ص٦٦٢. وكان السلطان يفعل ذلك سراً خوفا من أرغون العلائي زوج والدته ومدبر المملكة.
٣٨. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٠، ص١٣٢، ص١٥٣.
٣٩. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٣، ص١٩؛ المنهل الصافي، جـ٦، ص٣١٦؛ الدليل الشافي، جـ١، ص٣٤٨؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ١٢، ص٦٩–٧٠. وكان الشائع في ذلك الوقت أن السلطان إذا كان دون سن البلوغ أو لم يتزوج بعد أن تصير والدته خوند الكبرى.
٤٠. المقريزي، السلوك، جـ٤/ ق٢، ص٩٠٠؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، جـ٩، ص١٠٥–١٠٦؛ الصيرفي، نزهة النفوس، جـ٣، ص٢٦٨؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ١٢، ص١١٦؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص١٤٥.
٤١. السخاوي، الضوء اللامع، جـ١٢، ص١٢٧؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص٣٣٤.
٤٢. ابن تغري بردي، حوادث الدهور، جـ١، ص١٦٩؛ السخاوي، التبر المسبوك، جـ٢، ص١٣٥؛ الضوء اللامع، جـ١٢، ص٦٦.
٤٣. الصيرفي، إنباء الهصر، جـ٢، ص٤٦٥؛ السخاوي، التبر المسبوك، جـ٢، ص٨٠؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص٢٦٣.
٤٤. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٦، ص٢٩٢؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص٤٣٥.
٤٥. ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص٤٢٨–٤٢٩.
٤٦. كانت أصل باي أخت قانصوة من قانصوة الأشرفي الذي كان سلطاناً قبل جان بلاط، وقد راعي جان بلاط قرابته فأنعم عليه بخمسة آلاف دينار ورسم بإخراجه إلى الإسكندرية: ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص٤٤٢.

نفوذ زوجة السلطان ومكانتها

اشتهرت بعض زوجات سلاطين المماليك بسبب أصولهن الرفيعة ونسبهن السامي؛ فنجد مثلاً أن زينب زوجة السلطان المؤيد شيخ قد وصفت بأنها ابنة سلطان – وهو الظاهر برقوق – وأخت سلطان – وهو فرج بن برقوق – وأنها زوجة سلطان، وهو المؤيد شيخ[٤٧]. وبالمثل فاطمة بنت ططر كانت ابنة السلطان الظاهر ططر، وأخت السلطان محمد بن ططر، وزوجة السلطان الأشرف برسباي[٤٨].

من زوجات السلاطين أيضاً من اشتهرن بالنفوذ والعظمة والسلطان مثل خوند طغاي زوجة الناصر محمد بن قلاوون، وهي أم ولده أنوك، التي قال عنها المقريزي إنها: «رأت من السعادة ما لم يره غيرها من نساء الملوك بمصر، وتنعمت في ملاذ ما وصل سواها لمثلها... وكان القاضي كريم الدين والأمير مجليس وعدة من الأمراء يترجلون عند النزول ويمشون بين يدي محفتها، ويقبّلون الأرض لها كما يفعلون بالسلطان...وكان الأمير تنكز إذا جهز من دمشق تقدمة لابد وأن يكون لخوند طغاي منها جزء وافر. فلما مات الملك الناصر استمرت عظمتها من بعده إلى أن ماتت في شهر شوال عام تسع وأربعين وسبع مائة، أيام الوباء عن ألف جارية، وثمانين خادماً خصياً وأموال كثيرة جداً»[٤٩]. ويذكر ابن حجر العسقلاني أنه بسببها أبطل الناصر محمد عن مكة المكس الذي كان يؤخذ على القمح[٥٠]؛ مما يشير إلى نفوذها وكلمتها المسموعة عند السلطان. وقد اشتهرت خوند طغاي في التاريخ بسبب رحلتها الشهيرة إلى الحجاز، التي أنعم بها السلطان عليها بعد أن أنجبت ولده أنوك. ويصف المقريزي حجتها بقوله: «لم يسمع بمثل هذه الحجة في كثرة خيرها وسعة العطاء، ويقال إن السلطان أنفق على حجة طغاي مبلغ ثمانين ألف دينار وستمائة ألف درهم، سوى كرى الحمول وثمن الجمال ومصروف الجوامك، وسوى ما حمل من أمراء الشام وأمراء مصر»[٥١].

وقد حظيت خوند جلبان زوجة الأشرف برسباي أيضاً بمكانة عظيمة، وكان لها نفوذ وحرمة وافرة، حتى أن ابن تغري بردي وصفها بقوله: «وحظيت عنده – المقصود السلطان – ونالتها السعادة، وعظمت حرمتها في الدولة، وقصدها الناس لقضاء حوائجهم»[٥٢]. ويدلل على هذه المكانة الرفيعة بأن السلطان أرسل يطلب إخوتها وأقاربها من بلاد الجاركس، وعندما وفدوا إلى مصر أنعم عليهم بالرواتب والإقطاعات والوظائف[٥٣]. كما يضيف أنها «لو عاشت حتي تسلطن ولدها العزيز لكانت دبرت ملكه أحسن تدبير»[٥٤]. ويفهم من هذه العبارة أنها تمتعت برجاحة العقل وحسن التدبير، وربما يكون في ذلك إيحاء بأنها شاركت في تدبير أمور البلاد في عهد زوجها الأشرف برسباي.

٤٧. المقريزي، السلوك، جـ٤/ ق٢، ص٦٥١؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٥، ص١١٧؛ الصيرفي، نزهة النفوس، جـ٣، ص٣٩،حاشية (٣)؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ١٢، ص٤٠.

٤٨. السخاوي، الضوء اللامع، جـ١٢، ص٩٢؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص٣٨.

٤٩. المقريزي، الخطط، مجلد٤/ ق٢، ص٧٨٦–٧٨٨.

٥٠. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، جـ٢، ص٣٢١؛ أحمد عبد الرازق، المرأة، ص٦٠؛ منى محمد بدر، أثر الحضارة السلجوقية، جـ١، ص٢٦٠.

٥١. المقريزي، السلوك، جـ٢/ ق١، ص٢٣٥. ونفس المعنى ورد عند: ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، جـ٢، ص٣٢١؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١/ ق٢، ص٤٥٢؛ زينب فواز، الدر المنثور، جـ٢، ص٣٨. Doris Abouseif. The Mahmal Legend I, p. 93. وقد أشارت دوريس أبوسيف بإسهاب إلى رحلات الحج التي قامت بها زوجات السلاطين وما صاحبها من مظاهر العظمة والثراء.

٥٢. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، جـ٥، ص١٤. ونفس المعنى ذكره: السخاوي، الضوء اللامع، جـ١٢، ص٩٣؛ أحمد عبد الرازق، المرأة، ص٥٦.

٥٣. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، جـ٥، ص١٤–١٥.

٥٤. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، جـ٥، ص١٦.

أما خوند زينب بنت علاء الدين علي بن خاص بك زوجة الأشرف إينال فقد عرف عنها المزيد من النفوذ والسطوة؛ حتى أن ابن تغري بردي وصفها بقوله: «ولعل الذي وقع لها لم يقع لغيرها من نساء الملوك من نفوذ الكلمة ووفور الحرمة في الدولة، وعدم مخالفة السلطان لها»[٥٥]. ويضيف السخاوي أن السلطان كان يطيع أوامرها «حتى كان لا اختيار له معها»[٥٦]. ونحن لا نعرف على وجه الدقة مدى تدخلها في شؤون البلاد وإدارة شؤون الدولة، وما نوع الأوامر التي كان يطيعها فيها الأشرف إينال، وليس لدينا في هذا السياق سوى ما ذكره ابن إياس من أنها «صارت تدبر أمور المملكة من ولاية وعزل»[٥٧].

نفوذ ومكانة والد زوجة السلطان (حمو السلطان)

إن المتتبع للمصادر المملوكية يجد أن رابطة الزواج في أسر السلاطين كانت تخلق مجموعة من الروابط المتشابكة بين أفراد الأسرة. وفي تناولنا لرابطة الزواج في أسر سلاطين المماليك لا يمكن أن نغفل حما السلطان كأحد أهم أفراد أسرته، ولاسيما أنه يفهم من المصادر المملوكية أن بعض كبار الأمراء تمتعوا بمكانة مضاعفة بحكم مصاهرة السلطان. إذ كان حمو السلطان في كثير من الأحيان محل توقير السلطان واحترامه، وموضع ثقته، ومحط إنعامه وعطائه. وكان من أشهر هؤلاء الأمراء الأمير تنكز نائب الشام، ووالد زوجة السلطان الناصر محمد بن قلاوون؛ إذ تشير المصادر إلى أنه كان مقرباً من السلطان، وأن الأخير كان لا يفعل شيئاً بمصر إلا ويشاوره فيه[٥٨]. وكان الناصر محمد يكاتبه في المراسيم «أعز أنصار المقر الكريم العالي» وزاده في الألقاب عن العادة[٥٩]. كما تشير المصادر إلى أنه قلما كتب تنكز إلى السلطان في شيء ورده[٦٠]. أما إنعامات السلطان على تنكز فكانت تفوق الوصف والحصر؛ إذ كان السلطان يدعوه إلى مصر تقريباً كل عام ويجزل عليه العطاء والهدايا[٦١].

وقد علق المقريزي على هدايا السلطان وتعظيمه لتنكز عندما جاء إلى مصر لحضور عرس أنوك ابن السلطان سنة ٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م بقوله: «فلم يسمع عن ملك أنه فعل مع مملوكه من التعظيم ما فعله السلطان في هذا اليوم مع الأمير تنكز»[٦٢]. كذلك علق ابن تغري بردي على تعظيم السلطان لتنكز عندما وفد إلى مصر للاحتفال بإنجاب ابنته من السلطان عام ٧٣٩هـ/ ١٣٣٨م بقوله: «وكان من إكرامه له في هذه السفرة ما لا عهد من ملك مثله»[٦٣].

٥٥. ابن تغري بردي، حوادث الدهور، جـ٢، ص٥٢٥؛ أحمد عبد الرازق، المرأة، ص٥٥.
٥٦. السخاوي، الضوء اللامع، جـ١٢، ص٤٥.
٥٧. ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص١٥٦.
٥٨. ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، جـ١، ص٢٦٢؛ المقريزي، الخطط، مجلد٣، ص١٧٩؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، جـ٤، ص١٦٧؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١/ ق١، ص٤٨٠؛ الشوكاني، البدر الطالع، جـ١، ص١١٦.
٥٩. ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١/ ق١، ص٤٨٠.
٦٠. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، جـ١، ص٥٢٠؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، جـ٤، ص١٦٧؛ الشوكاني، البدر الطالع، جـ١، ص١١٦-١١٧.
٦١. المقريزي، المقفي الكبير، تحقيق محمد اليعلاوي، جـ٢، ص٦١٠-٦١٤؛ السلوك، جـ٢/ ق٢، ص٣٤٥، ٤١١، ٤١٧، ٤٣٦، ٤٦٠.
٦٢. المقريزي، السلوك، جـ٢/ ق٢، ص٤١٧.
٦٣. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ٩، ص١٢٩-١٣٠.

كذلك استفاد الأمير طقزدمر الحموي من كونه حما السلطان المنصور أبي بكر؛ إذ رقي إلى منصب نائب السلطنة بسبب «كونه من أكابر الأمراء وأيضاً صهر السلطان» – على حد قول ابن تغري بردي[٦٤]. وبالمثل كان لتغري بردي مكانة كبيرة في عصر الناصر فرج بن برقوق لكونه حما السلطان؛ فكان الناصر ينعم عليه بالإقطاعات[٦٥]، وولاه نيابة الشام، ثم الأتابكية، ثم نيابة دمشق[٦٦]. وكان تغري بردي معظماً في الدولة[٦٧]، ومقرباً من الناصر فرج؛ حتى أنه عندما اختفى الناصر فرج عام ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م، وتسلطن أخوه عبد العزيز لم يشك أحد في أن تغري بردي اصطحبه إلى الشام[٦٨]. وأيضاً كان للمقر الكمالي محمد بن البارزي مكانة رفيعة لدى الظاهر جقمق بحكم كونه أخا زوجته، فكان السلطان يقبل شفاعته[٦٩]، ويقربه إليه حتى «شاع ذكره، وبعد صيته، وقصده الناس من الأقطار»[٧٠].

وإذا كان حمو السلطان عادةً ما يحظى بمكانة كبيرة في الدولة ولدى السلطان بحكم مصاهرته، فإن الخروج عن هذه القاعدة كان في حالة جرباش الكريمي، حمي السلطان الظاهر جقمق، والذي تمتع ببعض المميزات بحكم مصاهرة السلطان[٧١]، ولكنه مع ذلك لم يحظ بمكانة كبيرة عنده. ويذكر ابن تغري بردي حادثة شفع فيها جرباش الكريمي لإينال الأبوبكري عند السلطان، ولكن السلطان رفض شفاعته. وقد كانت هذه الحادثة عام ٨٤٢هـ/ ١٤٣٩م؛ أي قبل زواج السلطان من ابنته، ولكن رغم ذلك يعلق ابن تغري بردي على هذا الموقف بقوله: «.. فلم يلتفت السلطان إلى شفاعته ونزل جرباش إلى داره خجلاً مفضوحاً من حاشيته وأصحابه، ومن يومئذ انحط قدره إلى أن مات، على أنه صاهر السلطان بعد ذلك وصار حماه، ومع هذا كله لم يكن له صولة في الدولة»[٧٢].

٦٤. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٠، ص٣، ١٠.
٦٥. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٣، ص٦٧.
٦٦. المقريزي، درر العقود الفريدة، جـ١، ص٤٩٢؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٣، ص١١٧؛ المنهل الصافي، جـ٤، ص٣٣-٣٤؛ الدليل الشافي، جـ١، ص٢١٦؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ٣، ص٢٩.
٦٧. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، جـ٤، ص٣٩؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ٣، ص٢٩.
٦٨. يقول ابن تغري بردي: «تحيرت الناس في أمر السلطان الملك الناصر فرج ولم يشك أحد في أن الوالد – المقصود والده تغري بردي – أخذه ومضي إلى البلاد الشامية لأنه كان عقد على الأخت قبل تاريخه بمدة يسيرة، ولم يدخل بها»: النجوم الزاهرة، جـ١٣، ص٤١.
٦٩. كان للمقر الكمالي نفس مكانة حمو السلطان: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٥، ص٣٣٠، ٣٣٣.
٧٠. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٦، ص١٧. انظر ترجمة المقر الكمالي عند: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٦، ص١٣-١٧؛ حوادث الدهور، جـ٢، ص٣٨٦-٣٨٨؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص٢٩٣.
٧١. من هذه المميزات أنه حج مع ابنته زوجة السلطان سنة٨٤٤هـ/ ١٤٤٠م: المقريزي، السلوك، جـ٤/ ق٣، ص١٢٠١.
٧٢. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٥، ص٣١٧. انظر ترجمة جرباش الكريمي عند: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٦، ص١٨٣؛ المنهل الصافي، جـ٤، ص٢٥٦-٢٥٩؛ الدليل الشافي، جـ١، ص٢٤٣؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ٣، ص٦٦-٦٧؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص٣٣٦.

أبناء السلطان وبناته

ابن السلطان

ضنت علينا المصادر بتفاصيل وافية حول كيفية اختيار زوجة ابن السلطان، إلا أن الإشارات القليلة التي ورد ذكرها في المصادر يفهم منها أن السلطان كان عادة ما يختار لابنه إحدى بنات كبار الأمراء؛ وذلك ليكون هذا الأمير عوناً لولده في حال استقراره على العرش.

كان هذا هو هدف الظاهر بيبرس عندما اختار ابنة قلاوون زوجة لولده السعيد محمد بن بيبرس، إلا أن هذه المصاهرة والرابطة الوثيقة لم تمنع قلاوون من خلع السعيد محمد من العرش بعد ذلك، بل قتله أيضاً حتى يثب على العرش مكانه[٧٣]. وبالمثل فعل الناصر محمد بن قلاوون عندما اختار ابنة الأمير بكتمر الساقي لتكون زوجة لابنه أنوك[٧٤]. وكان هذا الاختيار راجعاً لمكانة بكتمر عند الناصر محمد؛ فهو أحد كبار الأمراء، وكان له مكانة عالية حتى أن السلطان لا يفارقه «وصارت إشارته لا ترد وهو عبارة عن الدولة»[٧٥]. كما اختار الناصر محمد لابنه أبي بكر ابنة الأمير طقزدمر الحموي لتكون زوجة له[٧٦]. ويبدو أن الأمور في هذه الحالة سارت وفق ما رتب الناصر محمد؛ فبعد وفاته تولى ابنه أبو بكر السلطنة، واتفق الأمراء على إقامة سيف الدين طقزدمر حمى المنصور أبي بكر في نيابة السلطنة لكونه أحد أكابر الأمراء وصهر السلطان[٧٧].

وقد اتبع قانصوة الغوري نفس السياسة عندما اختار ابنة سيباي نائب الشام لتكون زوجة لولده المقر الناصري محمد؛ ليكون سيباي عوناً وسنداً لولده[٧٨]. ويشير ابن إياس إلى أن العروس كانت في الثامنة من عمرها، ومحمد بن قانصوة كان في الثالثة عشر، كما أن قانصوة هو الذي ألح لإتمام هذا الزواج. وكل هذا يشير إلى أن قانصوة لم يكن يرغب في المصاهرة في حد ذاتها بقدر ما كان يرغب في ضمان عون سيباي ومساندته. أما المؤيد شيخ فقد زوج ابنه صارم الدين إبراهيم من ابنة السلطان السابق، وهو الناصر فرج بن برقوق[٧٩].

٧٣. يذكر ابن تغري بردي أن الناس كرهت المنصور قلاوون سنين لهذه الفعلة، حتى إن ابنته أبغضته لذلك؛ لأنها وجدت على زوجها وجداً عظيماً وتألمت لفقده ولم تتزوج بعده. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ٧، ص٢٧٢؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٤، ص٤٠٧–٤٠٨.

٧٤. المقريزي، السلوك، جـ٢/ ق٢، ص٣٣٣؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ٩، ص١٠٠.

٧٥. المقريزي، الخطط، مجلد٤/ ق٢، ص٧٧٦؛ ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، جـ١، ص٤٨٦. ولم تتح لبكتمر الفرصة ليكون عوناً لابن السلطان إذ توفي أنوك في حياة والده، كما ثقل أمر بكتمر على السلطان الذي بدأ يتخوف من تعاظم أمر بكتمر وتزايد نفوذه فقتله. انظر ترجمة بكتمر عند: المقريزي، المقفى الكبير، جـ٢، ص٤٦٨–٤٧٤؛ الخطط، مجلد٤/ ق٢، ص٧٧٢–٧٧٧؛ ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، جـ١، ص٤٨٦–٤٨٧؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، جـ٣، ص٣٩٠–٣٩٧؛ الدليل الشافي، جـ١، ص١٩٤؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١/ ق١، ص٤٦٤.

٧٦. كان العقد في احتفال كبير سنة ٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م: المقريزي، السلوك، جـ٢/ ق٢، ص٤١٧؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ٩، ص١١٥.

٧٧. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٠، ص٣. انظر ترجمة طقزدمر الحموي عند: الذهبي، العبر، ص١٣٨؛ ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، جـ٢، ص٢٢٥؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٠، ص١٤٢؛ المنهل الصافي، جـ٦، ص٤٢٠–٤٢٢؛ الدليل الشافي، جـ١، ص٣٦٦.

٧٨. ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٤، ص٤٠٦.

٧٩. المقريزي، السلوك، جـ٤/ ق١، ص٢٦٧؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٤، ص١١؛ الصيرفي، نزهة النفوس، جـ٢، ص٣٣١؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص٩.

ومن هذه الأمثلة القليلة يتضح أن السلطان المملوكي كان عادة يختار لابنه ابنة أحد كبار الأمراء لتكون زوجة له؛ ليضمن مساندة والدها لولده في حال وصوله إلى العرش، أو يختار له ابنة أحد السلاطين السابقين.

ابنة السلطان

لقد كان الأمر مختلفاً عند اختيار زوج ابنة السلطان؛ فلم يكن المهم أن يختار لها السلطان أحد كبار الأمراء بقدر ما كان المهم أن يختار لها شخصاً يثق به، أو أحد صغار الأمراء الذي يشمله السلطان برعايته واهتمامه ويرقيه ويرفعه؛ فيضمن بذلك ولائه ويصير محل ثقته. وقد كان الناصر محمد بن قلاوون مثالاً واضحاً على تطبيق هذه السياسة؛ فقد اختار أزواج بناته من بين أمرائه الذين قربهم وأغدق عليهم النعم والهدايا وجعلهم محل ثقته، وولاهم بعد ذلك أهم المناصب في الدولة. أول هؤلاء الأمراء كان الأمير قوصون الذي كان مقرباً من السلطان، فأمّره حتى صار أمير مائة مقدم ألف، ثم عقد له على إحدى بناته في جمادى الآخرة سنة ٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م[٨٠]. والثاني كان الأمير طغاي تمر العمري الناصري الذي حظي عند السلطان لجماله وسكونه وعقله[٨١]، فرقاه السلطان وزوجه إحدى بناته، وذلك في رجب ٧٢٨هـ/ ١٣٢٨م[٨٢]. كذلك زوج السلطان إحدى بناته للأمير بشتاك الناصري[٨٣]، وأخرى للأمير الطنبغا المارديني، الذي اختص به السلطان ورقّاه حتي صار من أمراء الألوف، ثم زوجه إحدى بناته[٨٤]. وابنة أخرى للناصر محمد عقد لها على الأمير ملكتمر الحجازي، الذي حظى عند السلطان وتقدم في آخر أيام الملك الناصر وتزوج إحدى بناته[٨٥]. والسادسة من بنات الناصر محمد زوجها للأمير أقسنقر الناصري، الذي كان أيضاً ممن ترقوا على يده حتى صار أمير شكار، وزوجه إحدى بناته[٨٦].

والمتتبع لتراجم هؤلاء الأمراء يجد قاسماً مشتركاً في تراجمهم، وهو عبارة «وكان ممن اختص به السلطان»؛ أي أن السلطان كان يختار أزواج بناته ممن اختص بهم من الأمراء، ثم يرقيه ويرفع من شأنه ويزوجه إحدى بناته. وحتى يضمن

٨٠. المقريزي، السلوك، جـ٢/ ق١، ص٢٧٢، ٢٨٣؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ٩، ص٨٩. انظر ترجمة قوصون عند: الصفدي، الوافي بالوفيات، النشرات الإسلامية، جـ٢٤، ص٢٧٧-٢٧٩؛ ابن حبيب، تذكرة النبيه، جـ٣، ص٣٣؛ المقريزي، السلوك، جـ٢/ ق٣، ص٦١٥؛ الخطط، مجلد٤/ ق١، ص٢٢٤-٢٢٦؛ ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، جـ٣، ص٢٥٧-٢٥٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٠، ص٤٦-٤٧؛ المنهل الصافي، جـ٩، ص١٠٧-١١٠؛ الدليل الشافي، جـ٢، ص٥٥١. وقد عرفت زوجة قوصون بالقوصونية: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٠، ص٥٣.

٨١. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، جـ٢، ص٢٢٣.

٨٢. المقريزي، السلوك، جـ٢/ ق١، ص٢٩٦؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ٩، ص٨٩. انظر ترجمة طغاي تمر الناصري عند: ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، جـ٢، ص٢٢٣؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، جـ٦، ص٤١٣؛ الدليل الشافي، جـ١، ص٣٦٤.

٨٣. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ٩، ص١٧٥؛ جـ١٠، ص٥٣. انظر ترجمة بشتاك الناصري عند: المقريزي، السلوك، جـ٢/ ق٣، ص٦١٤؛ المقفي الكبير، جـ٢، ص٤٢٣-٤٢٧؛ الخطط، مجلد٣، ص٩٩-١٠١؛ ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، جـ١، ص٤٧٧-٤٧٩؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٠، ص٧٤-٧٥؛ المنهل الصافي، جـ٣، ص٣٦٧-٣٧١؛ الدليل الشافي، جـ١، ص١٩١.

٨٤. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ٩، ص١٧٥. انظر ترجمة الطنبغا المارديني عند: المقريزي، السلوك، جـ٢/ ق٣، ص٦٥٨؛ المقفي الكبير، جـ٢، ص٢٨٤-٢٨٥؛ الخطط، مجلد٤/ ق١، ص٢٢٨-٢٣٠؛ ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، جـ١، ص٤٠٩؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، جـ٣، ص٦٧-٧٠؛ الدليل الشافي، جـ١، ص١٥١.

٨٥. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٠، ص٥٢-٥٣. انظر ترجمة ملكتمر الحجازي عند: المقريزي، السلوك، جـ٢/ ق٣، ص٧٤٨، ٧٥٥؛ ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، جـ٤، ص٣٥٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٠، ص١٨٤؛ الدليل الشافي، جـ٢، ص٧٤١. وقد عرفت زوجة ملكتمر الحجازي بالحجازية: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٠، ص٥٣.

٨٦. انظر ترجمة أقسنقر الناصري عند: المقريزي، المقفي الكبير، جـ٢، ص٢٦٢-٢٦٣؛ السلوك، جـ٢/ ق٣، ص٧٥٤؛ ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، جـ١، ص٣٩٤.

السلطان استمرار ولائهم كان يغدق عليهم العطاء؛ فتذكر المصادر مثلاً أنه في عرس قوصون على ابنة السلطان أمر الأخير الأمراء بحمل التقادم والشموع لقوصون، «فبلغ وزن الشمع الذي أحضره الأمراء ثلاثمائة قنطار وأحد عشر قنطاراً، وبلغت التقادم لقوصون خمسين ألف دينار»[٨٧]. وعندما عقد لطغاي تمر على ابنة الناصر محمد أعفى الأخير الأمراء من حمل التقادم لطغاي، وأنعم عليه من الخزانة بخمسين ألف دينار[٨٨]. وفي عام ٧٣٨هـ/ ١٣٣٦م أنعم السلطان الناصر محمد في يوم واحد على أزواج بناته: (قوصون، والطنبغا المارديني، وملكتمر الحجازي، وبشتاك) بمائتي ألف دينار[٨٩].

ولم تكن هدايا السلطان مادية فقط، بل كانت أيضاً عينية؛ فعندما شرع قوصون في بناء مسجده أرسل إليه السلطان بشاد العمائر والأسرى لنقل الحجارة ونحوها؛ مما ساعد على إنجاز عمارة المسجد في مدة يسيرة[٩٠]. كما بني السلطان للأمير الطنبغا الماردينى قصراً تجاه القلعة في عام ٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م، وفي نفس العام رسم للأمير قوصون أن يشتري الأملاك التي حول اصطبله، ويضيفها فيه[٩١]. وتحوي المصادر أمثلة أخرى كثيرة على هدايا الناصر محمد بن قلاوون وإنعاماته على أزواج بناته. وكنتيجة طبيعية كان الناصر محمد يثق بهؤلاء الأمراء؛ بدليل أنه أثناء مرض موته اختار اثنان من أزواج بناته – قوصون وبشتاك – وجعلهما الوصيين على أبي بكر، ابنه والسلطان من بعده، وجعل إليهما تدبير أمور البلاد[٩٢]. وبالفعل استقر قوصون مدبراَ للمملكة ورأس المشورة، ويشاركه في الرأي بشتاك الناصري[٩٣].

وبالمثل اختار الناصر فرج بن برقوق أن يزوج ابنته شقراء من أحد صغار الأمراء؛ فقد عقد لها على الأمير جرباش كرد، والذي كان أحد مماليكه، ثم رقّاه وجعله أمير عشرة ورأس نوبة، وزوجه ابنته شقراء[٩٤]. وقد صار جرباش محل ثقة السلطان بحكم علاقة المصاهرة التي ربطت بينهما، حتى أن جرباش كان ممن أسند إليه السلطان وصيته قبل وفاته[٩٥]. كذلك اختار السلطان جقمق أحد صغار الأمراء زوجاً لابنته[٩٦]؛ فقد زوجها من مملوكه أزبك من ططخ[٩٧]، وكان أزبك وقتها أحد أمراء العشرات[٩٨]. أما السلطان الأشرف إينال فقد زوج ابنته الكبرى بدرية[٩٩] – قبل أن يتسلطن – من أحد مماليكه وهو بردبك الأشرفي. وبعد أن تسلطن إينال رقّى زوج ابنته، فجعله أمير عشرة دوادار ثالث[١٠٠]، ثم رقّاه إلى

٨٧. المقريزي، السلوك، جـ٢/ ق١، ص٢٨٨.
٨٨. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ٩، ص٢١٢. ولكن المقريزي يذكر أنه أنعم عليه بأربعة آلاف دينار: السلوك، جـ٢/ ق١، ص٢٩٦.
٨٩. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ٩، ص١١٩.
٩٠. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ٩، ص٩٤–٩٥.
٩١. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ٩، ص١٢١.
٩٢. المقريزي، السلوك، جـ٢/ ق٢، ص٥٢٣.
٩٣. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٠، ص٣. والغريب والغير متوقع أن قوصون الذي كان «أعز مماليك الناصر محمد وزوج ابنته» – على حد تعبير ابن تغري بردي – هو الذي سعى إلى خلع المنصور أبو بكر من السلطنة وإخراجه إلى قوص، ثم قتله بعد ذلك، برغم كل ما قدمه له الناصر محمد قبل ذلك: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٠، ص١٧.
٩٤. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، جـ٤، ص٢٦٠. انظر ترجمة جرباش الناصري كرد عند: ابن تغري بردي، المنهل الصافي، جـ٤، ص٢٦٠–٢٦١؛ الدليل الشافي، جـ٢، ص٢٤٣؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ٣، ص٦٦؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص٨٣–٨٤.
٩٥. السخاوي، الضوء اللامع، جـ٣، ص٦٦.
٩٦. ذكرها ابن تغري بردي في وفيات عام ٨٦٧هـ/ ١٤٦٢م دون أن يذكر اسمها، وأشار إلى أنها كانت زوجة أزبك: النجوم الزاهرة، جـ١٦، ص٣١٩. كما ذكرها السخاوي باسم خديجة: الضوء اللامع، جـ١٢، ص٢٧. أما ابن إياس فقد ذكرها باسم عائشة: بدائع الزهور، جـ٢، ص٤٠٤.
٩٧. كان هذا الزواج عام ٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٥، ص٤٠٦؛ حوادث الدهور، جـ١، ص٢٥٥–٢٥٦؛ السخاوي، التبر المسبوك، جـ٣، ص١٢؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص٢٧٧.
٩٨. انظر ترجمة أزبك من ططخ عند: ابن تغري بردي، الدليل الشافي، جـ١، ص١١٣؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ٢، ص٢٧٠. وقد تزوج أزبك الابنة الثانية للظاهر جقمق وهي فاطمة، وذلك بعد وفاة زوجته خديجة: السخاوي، الضوء اللامع، جـ ١٢، ص٩٠؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص٣٠٠.
٩٩. انظر ترجمة بدرية بنت إينال عند: السخاوي، الضوء اللامع، جـ ١٢، ص١٣؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص١٠٢.
١٠٠. كان ذلك في عام ٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٦، ص٦٤؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص٣٠٩.

الدوادارية الثانية لكونه صهره[١٠١]، وصار بردبك من أعيان مماليك الأشرف أينال[١٠٢]، كما صارت «أمور المملكة مغدوقة به» على حد قول ابن إياس[١٠٣].

ومن ذلك يتضح أن السلطان كان عادة يختار أزواج بناته من بين خواصه من الأمراء، خاصةً ممن كانوا مماليكه وأنشأهم ورقّاهم، أو من بين صغار الأمراء. وأما أن يختار السلطان زوجاً لابنته من بين كبار الأمراء فكان ذلك هو الاستثناء، ووفقاً لما توفر لدينا من المصادر كان ذلك في ثلاث حالات:

– الحالة الأولى كانت عندما عقد السلطان الناصر فرج بن برقوق لابنته على الأمير بكتمر جلق نائب الشام، وذلك بدمشق في ربيع الآخرعام ٨١٢هـ/ ١٤٠٩م[١٠٤]، ثم كان العرس بالقاهرة في المحرم عام ٨١٣هـ/ ١٣١٠م، برغم أن العروس كان عمرها سبع سنين أو أقل[١٠٥]. وقد كان الناصر فرج وقتها في أوج خلافه مع أمراء الشام، فيبدو أنه أراد بهذا الزواج أن يضمن ولاء بكتمر جلق ومناصرته له ضد شيخ ونوروز.

– الحالة الثانية كانت عندما عقد السلطان المؤيد شيخ لابنته على الأمير الكبير الطنبغا القرمشي عام ٨٢٣هـ/ ١٤٢٠م[١٠٦]. وكان الطنبغا القرمشي محل ثقة السلطان؛ حتى أنه عندما اختار ابنه للسلطنة من بعده جعل الأمير الطنبغا القائم بتدبير ملكه إلى أن يبلغ الحكم[١٠٧].

– الحالة الثالثة كانت عندما عقد السلطان الأشرف إينال لابنته الصغرى فاطمة[١٠٨] على الأمير يونس الأقبائي الدوادار الكبير وأحد أمراء المائة، وكان ذلك عام ٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م[١٠٩].

وجدير بالذكر أن نشير هنا إلى الاهتمام الفائق الذي أولاه سلاطين المماليك لحفلات زواج أبنائهم وبناتهم بصفة عامة، ولجهاز بناتهم بصفة خاصة. وقد اتسم جهاز بنات السلاطين عموماً بالبذخ؛ حيث بالغ السلاطين في تجهيز بناتهم بأفخر الثياب والجواهر والأثاث، بالإضافة إلى الأسمطة والهدايا والخلع التي تعم الاحتفال. وقد أسهب المؤرخون في وصف احتفالات الزواج ومظاهر البذخ فيها[١١٠]، ووصف جهاز بنات السلاطين[١١١] والتي يعجز المقام هنا عن ذكرها.

١٠١. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٦، ص٨٢؛ حوادث الدهور، جـ٢، ص٤٩٠؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص٣١٩.
١٠٢. ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص٣١٩.
١٠٣. ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص٤٢٣. انظر ترجمة بردبك عند: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٦، ص٣٣٥، السخاوي، الضوء اللامع، جـ٣، ص٤-٥؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص٤٢٣-٤٢٤.
١٠٤. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٣، ص٨٨.
١٠٥. المقريزي، السلوك، جـ٤/ ق١، ص١٣٢؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٣، ص١٠١؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١/ ق٢، ص٨٠٣. انظر ترجمة بكتمر جلق عند: المقريزي، السلوك، جـ٤/ ق١، ص٢٣٩؛ ابن تغري بردي، الدليل الشافي، جـ١، ص١٩٥؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ٣، ص١٧.
١٠٦. المقريزي، السلوك، جـ٤/ ق١، ص٥٣٦؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٤، ص١٠٠.
١٠٧. المقريزي، السلوك، جـ٤/ ق١، ص٥٣٩؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٤، ص١٠٣. انظر ترجمة الطنبغا عند: المقريزي، السلوك، جـ٤/ ق٢، ص٥٩٨؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، جـ٣، ص٦٢-٦٦؛ الدليل الشافي، جـ١، ص١٥١؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ٢، ص٣١٩.
١٠٨. انظر ترجمة فاطمة بنت إينال عند: السخاوي، الضوء اللامع، جـ١٢، ص٩٠؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص٢٠.
١٠٩. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٦، ص٦٧؛ حوادث الدهور، جـ٢، ص٤٤٠، ٤٤٨؛. انظر ترجمة يونس الأقبائي عند: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٦، ص٣١٣؛ الدليل الشافي، جـ٢، ص٨١١؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ١٠، ص٣٤٥-٣٤٦؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص٣٨٠.
١١٠. مثل الاحتفال بزواج أنوك ابن الناصر محمد بن قلاوون: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ٩، ص١٠١-١٠٢.
١١١. لمزيد من التفاصيل انظر:
– جهاز ابنة الناصر محمد بن قلاوون التي تزوجت أمير علي بن أرغون: المقريزي، السلوك، جـ٢/ ق١، ص٢٤٩.

أخت السلطان

كانت أخت السلطان أيضاً من الشخصيات المهمة في الأسرة، لذا كان السلطان يهتم باختيار الزوج المناسب لأخته. قد يكون هذا الزوج شخصاً مقرباً من السلطان، ويود الأخير أن يظهر له مدي اختصاصه به فيزوجه أخته؛ كما هو الحال مع السلطان الصالح إسماعيل الذي كان قد اختص بالأمير بيبغا الصالحي وأمّره وخوله في النعم، كما زوجه أخته لأمه (ابنة الأمير أرغون العلائي مدبر المملكة وزوج أم السلطان)[١١٢].

وفي أغلب الأحيان كان السلطان يختار أحد كبار الأمراء ليكون زوجاً لأخته، ويزيد نفوذ هذا الأمير وترتفع مكانته بالتبعية نتيجة هذا الزواج. وقد حفلت المصادر المملوكية بالأمثلة الدالة على ذلك؛ فنجد أن السلطان الناصر حسن زوج أخته زهراء للأمير طاز[١١٣]. وكان طاز في ذلك الوقت أمير مجلس[١١٤] ونائب السلطان، وبالطبع كان طاز في ذلك الوقت أحد كبار الأمراء؛ حتي أن الذهبي وصفه بأنه أكبر أمراء الدولة في سنة خمسين وما بعدها[١١٥]. كما أشارت المصادر إلى أنه كان أحد الأمراء الستة أرباب الحل والعقد في دولة المظفر حاجي، ثم ازدادت وجاهته وحرمته في عصر السلطان حسن[١١٦]. ولا عجب، فهو مع كونه أحد كبار الأمراء كان زوجاً لأخت السلطان فكان محل ثقته؛ لذا فقد «ناط الأمور بالأمير طاز، وجعل قوله عمدة وفعله ماض»[١١٧]. وشارك طاز في النفوذ والعظمة والوجاهة في عصر السلطان حسن الأمير شيخو، الذي كان أيضاً زوجاَ لإحدى أخوات السلطان[١١٨]. وقد زادت وكثرت أمواله وأملاكه[١١٩].

وقد حظي الأمير منكلي بغا الشمسي بمكانة مماثلة في عصر الأشرف شعبان بن حسين. ففي البداية خلع عليه السلطان، واستقر به في نيابة حلب عام ٧٦٨هـ/ ١٣٦٥م، فصارت نيابة حلب أكبر رتبةَ من نيابة الشام، وعظم أمر منكلي بغا

– جهاز ابنة الناصر محمد التي تزوجت قوصون: المقريزي، السلوك، جـ٢/ ق١، ص٢٨٨.
– جهاز بنات الناصر محمد عموماً: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ٩، ص١٧٥.
– جهاز ابنة الأشرف شعبان التي تزوجت منطاش: المقريزي، السلوك، جـ٣/ ق٢، ص٦٦١؛ الصيرفي، نزهة النفوس، جـ١، ص٢٥٥.
– جهاز ابنة الناصر فرج بن برقوق التي تزوجت بكتمر جلق: الصيرفي، نزهة النفوس، جـ٢، ص٢٦٣.
– جهاز ابنة الظاهر جقمق التي تزوجت أزبك الظاهري: ابن تغري بردي، حوادث الدهور، جـ١، ص٢٥٥-٢٥٦.
– جهاز ابنة الأشرف إينال التي تزوجت يونس الأقبائي: ابن تغري بردي، حوادث الدهور، جـ٢، ص٤٤٨.

١١٢. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٠، ص٧٩.

١١٣. زهراء كانت قبل ذلك زوجة أقسنقر الناصري الذي قتل في عصر المظفر حاجي، ثم تزوجت طاز في مستهل ربيع الآخر ٧٥٢هـ/ ١٣٥١م، وأقام لهما السلطان عرساَ يليق بمكانتهما: المقريزي، السلوك، جـ٢/ ق٣، ص٨٤٠.

١١٤. المقريزي، درر العقود، جـ٢، ص١٩٨؛ الخطط، مجلد ٣، ص٢٤٢.

١١٥. الذهبي، العبر، ص١٩٩.

١١٦. المقريزي، الخطط، مجلد٣، ص٢٤٢-٢٤٣؛ ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، جـ٢، ص٢١٤.

١١٧. المقريزي، درر العقود، جـ٢، ص١٩٨. انظر ترجمة الأمير طاز عند: الذهبي، العبر، ص١٩٩؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ١٦، ص٣٨٣؛ ابن حبيب، تذكرة النبيه، جـ٣، ص٢٥٥؛ المقريزي، درر العقود، جـ٢، ص١٩٨؛ الخطط، مجلد ٣، ص٢٤٢-٢٤٣؛ ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، جـ٢، ص٢١٤؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، جـ٦، ص٣٦٢-٣٦٥؛ الدليل الشافي، جـ١، ص٣٥٧.

١١٨. المقريزي، السلوك، جـ٣/ ق١، ص٢١.لم يذكر المقريزي تاريخ الزواج ولكنه ذكر أن أخت الناصر حسن أنجبت لشيخو ولداً عام ٧٥٦هـ، أي في السلطنة الثانية للناصر حسن.

١١٩. يفهم من المصادر أنه قد تزايدت مكانة شيخو في السلطنة الثانية للناصر حسن لكونه مدبر المملكة مع كونه زوج أخت السلطان: المقريزي، الخطط، مجلد٤/ ق١، ص٢٦٢؛ ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، جـ٢، ص١٩٦؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١/ ق١، ص٥٥٤. انظر ترجمة شيخو عند: الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ١٦، ص٢١١؛ ابن حبيب، تذكرة النبيه، جـ٣، ص٢٠٤؛ المقريزي، الخطط، مجلد٤/ ق١، ص٢٥٨؛ ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، جـ٢، ص١٩٦؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، جـ٦، ص٢٥٧-٢٦٢؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١/ ق١، ص٥٦٢.

للغاية[١٢٠]. وفي العام التالي استدعاه السلطان إلى مصر، وجعله نائب السلطان وأتابك العسكر[١٢١]، ثم زوجه أخته خوند سارة بنت حسين[١٢٢]. والغريب أن المصادر تشير إلى أن الأشرف شعبان زوج أخته خوند سارة للأمير بشتاك العمري رأس نوبة النوب، وذلك عام ٧٧٠هـ/ ١٣٦٨م[١٢٣]، أي بعد أقل من عام من الزواج السابق ذكره. ولم تشر المصادر إلى أن منكلي بغا قد طلق سارة، أو أن من تزوجت بشتاك هي أخت أخرى للأشرف شعبان. أيّا كان الأمر فإن الأمير بشتاك العمري كان من خواص الأشرف شعبان[١٢٤]، وكان جليل القدر معظماً لديه[١٢٥].

كذلك تزوجت أخت المنصور حاجي بن الأشرف شعبان عام ٧٩١هـ/ ١٣٨٩م من الأمير الكبير منطاش[١٢٦]. وأيضاً أخوات الناصر فرج بن برقوق الثلاث تزوجن في عصره من كبار الأمراء:

الأخت الأولي هي خوند «سارة بنت الظاهر برقوق»، وقد تزوجت الأمير نوروز الحافظي عام ٨٠٤هـ/ ١٤٠١م[١٢٧]، وكان نوروز وقتها رأس نوبة الأمراء[١٢٨]. واللافت للنظر أنه عندما توترت العلاقة بين الناصر فرج بن برقوق والأمير نوروز الحافظي وخرج نوروز عن الطاعة، استغل الناصر فرج هذا الزواج كوسيلة للانتقام. فقد أشار ابن تغري بردي إلى أن السلطان الناصر فرج – من عظم غضبه وحنقه على نوروز – جمع القضاة في ذي القعدة عام ٨١٤هـ/ فبراير١٤١٢م و«طلق أخته خوند سارة بنت الملك الظاهر برقوق من زوجها الأمير نوروز، وزوجها الأمير مقبل الرومي – على كره منها بعد أن هددها بالقتل – بعقد ملفق من قضاة الجاه والشوكة، فعظم ذلك على الأمير نوروز للغاية، ولم يحسن ذلك ببال أحد»[١٢٩]. وبعد قتل الناصر فرج – والذي شارك في تدبيره نوروز – سارت خوند سارة من القاهرة لملاقاة زوجها نوروز، فخرج من دمشق لاستقبالها، وكانت مريضة، فتوجه بها إلى القدس فماتت ودفنها هناك[١٣٠].

وأما الأخت الثانية للناصر فرج فهي «بيرم» التي تزوجت الأمير إينال باي بن قجماس عام ٨٠٤هـ/ ١٤٠١م[١٣١]. وإينال هذا هو ابن عم الظاهر برقوق[١٣٢]، وقد رقاه السلطان وجعله أمير أخور كبير بعد زواجه من أخته[١٣٣]. وقد

١٢٠. ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١/ ق٢، ص٤٢–٤٣.
١٢١. المقريزي، السلوك، جـ٣/ ق١، ص١٥٦.
١٢٢. المقريزي، السلوك، جـ٣/ ق١، ص١٥٧؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١١، ص٤٩؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١/ ق٢، ص٧٤. انظر ترجمة منكلي بغا الشمسي عند: ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، جـ٤، ص٣٦٧؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١١، ص١٢٤؛ الدليل الشافي، جـ٢، ص٧٤٤–٧٤٥؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١/ ق٢، ص١١٠؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، جـ٦، ص٤٣٨.
١٢٣. المقريزي، السلوك، جـ٣/ ق١، ص١٧٠؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١/ ق٢، ص٨٢.
١٢٤. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، جـ٣، ص٣٧٢.
١٢٥. ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١/ ق٢، ص٨٦. انظر ترجمة بشتاك العمري عند: ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، جـ١، ص٤٧٧؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، جـ٣، ص٣٧٢؛ الدليل الشافي، جـ١، ص١٩٢؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١/ ق٢، ص٨٦.
١٢٦. المقريزي، السلوك، جـ٣/ ق٢، ص٦٦١.
١٢٧. ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١/ ق٢، ص٦٣٩. كما أشار ابن تغري بردي لهذا الزواج في معرض حديثه عن زواج الأخت الثالثة للناصر فرج دون أن يذكر تاريخ الزواج: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٢، ص٢٩٧.
١٢٨. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٢، ص١٩٧. وبعد الزواج جعله السلطان أتابك العسكر: المقريزي، درر العقود، جـ٣، ص٥١٥.
١٢٩. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٣، ص١٣٢؛ ونفس المعنى ورد عند: المقريزي، السلوك، جـ٤/ ق١، ص٢٠٧. انظر ترجمة نوروز الحافظي عند: المقريزي، درر العقود، جـ٣، ص٥١٣–٥١٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٤، ص٢١؛ الدليل الشافي، جـ٢، ص٧٦٣؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ١٠، ص٢٠٤–٢٠٥. وترجمة مقبل الرومي عند: ابن تغري بردي، الدليل الشافي، جـ٢، ص٧٣٩–٧٤٠؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ١٠، ص١٦٧.
١٣٠. كان ذلك عام ٨١٦هـ: المقريزي، السلوك، جـ٤/ ق١، ص٢٤٠.
١٣١. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٢، ص٢٩٧؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١/ ق٢، ص٦٤٠.
١٣٢. ابن تغري بردي، الدليل الشافي، جـ١، ص١٧٧؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ٢، ص٣٢٦.
١٣٣. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٢، ص٢٩٣.

زادت مكانة إينال باي بعد هذا الزواج حتي أن ابن تغري بردي يقول: «عظم قدره وضخم، وصار له كلمة نافذة في الدولة لزواجه بأخت السلطان، وسار على قاعدة الملوك من استكثار المماليك والسماط الهائل»[١٣٤]. وقد اختص إينال باي بالسلطان لقرابته ثم لمصاهرته؛ فكان السلطان ينزل إلى بيته، ويقيم عنده، ويعاقره الشراب[١٣٥]. وعندما قتل إينال في غزة، حمل السلطان فرج جثته إلى القاهرة؛ ليدفن هناك؛ «لأنه كان خصيصاً عنده» على حد قول ابن تغري بردي[١٣٦]. وقد تزوجت خوند بيرم من الأمير أسنبغا الزردكاش بعد وفاة إينال باي[١٣٧].

وأما الأخت الثالثة للناصر فرج بن برقوق فهي «زينب»، التي عقد لها أخوها الناصر فرج على الأمير سودون الحمزاوي، وذلك عام ٨٠٥هـ/ ١٤٠٣م، وكانت زينب وقتها في الثامنة من عمرها[١٣٨]. وبعد هذا الزواج مباشرة ترقى سودون من الخزندارية إلى رأس نوبة كبير[١٣٩]. لم تذكر المصادر ما إذا كان سودون قد دخل بزينب أم لا، إلا أنه قتل سنة ٨١٠هـ/ ١٤٠٧م[١٤٠]، وتزوجت زينب الأمير شيخ، الذي صار بعد ذلك سلطاناً[١٤١].

ولم يخرج الظاهر جقمق عن القاعدة؛ فقد زوج أخته للأمير تنم من عبد الرازق المؤيدي عام ٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م، وكان تنم وقتها أحد الأمراء المقدمين وأمير مجلس[١٤٢].

ومن الأمثلة السابقة يتضح أن السلطان كان يُعنى باختيار الزوج المناسب لأخته، والذي يكون دائماً أحد كبار الأمراء، مثل أتابك العسكر، أو رأس نوبة النوب، أو أمير مجلس. كما قد يكون اختيار زوج أخت السلطان وسيلة للتعبير عن مدى اختصاص السلطان بالشخص المختار، أو مكافأة له ورفعاً لمكانته.

أم السلطان

كان لأمهات السلاطين مكانة مرموقة في العصر المملوكي، كما كان لبعضهن الكثير من النفوذ، خاصةَ إذا ما كان السلطان صغير السن. وبالتبعية كان زوج أم السلطان يكتسب مكانة مرموقة في الدولة. ويفهم من المصادر المملوكية أن الزواج من أم السلطان كان يعلي قدر الأمير، ويرفع من شأنه، ويزيد نفوذه. فنجد الأمير أرغون العلائي احتل مكانة مرموقة لدى السلطان الصالح إسماعيل بحكم كونه زوج أمه؛ لذا فبمجرد استقرار الصالح على العرش صار أرغون

١٣٤. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، جـ٣، ص٣١٧.
١٣٥. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٢، ص٣٠٣. وكان إينال يسكن الإسطبل السلطاني كعادة الأمير أخور.
١٣٦. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٣، ص٦٧. انظر ترجمة إينال باي عند: ابن تغري بردي، المنهل الصافي، جـ٣، ص٢١٧–٢٢١؛ الدليل الشافي، جـ١، ص١٧٧؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ٢، ص٣٢٦.
١٣٧. لم تذكر المصادر تاريخ الزواج، ولكن أشار إليه تغري بردي في حوادث سنة ٨١٤هـ، وكان أسنبغا وقتها أحد أمراء الألوف وشاد الشراب خاناه: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٣، ص١٢٣. انظر ترجمة أسنبغا الزردكاش عند: السخاوي، الضوء اللامع، جـ٢، ص ٣١٢.
١٣٨. المقريزي، السلوك، جـ٣/ ق٣، ص١١٠٠؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٢، ص٢٩٧؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١/ ق٢، ص٦٦٦.
١٣٩. وذلك في شوال عام ٨٠٥هـ: المقريزي، السلوك، جـ٣/ ق٣، ص١١٠٤.
١٤٠. انظر ترجمة سودون الحمزاوي عند: ابن تغري بردي، الدليل الشافي، جـ١، ص٣٣٠؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ٣، ص٢٧٨–٢٧٩.
١٤١. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٢، ص١٠٦.
١٤٢. السخاوي، التبر المسبوك، جـ٣، ص٢٢. انظر ترجمة تنم المؤيدي عند: السخاوي، الضوء اللامع، جـ٣، ص٤٤.

مدبر الدولة وكافل السلطان ورأس المشورة، كما أنعم عليه السلطان بعشرين ألف دينار ومائتي ألف درهم فضة[١٤٣]. واحتفظ أرغون بهذه المكانة والحظوة طوال عصر الصالح إسماعيل. وعندما مرض الأخير أراد أرغون أن يعهد السلطان بالمُلك لأخيه شعبان. ويعلق ابن تغري بردي على ذلك بقوله: «وكان أرغون العلائي المذكور غرضه عند شعبان؛ كونه أيضاً ربيبه ابن زوجته»[١٤٤]. وهو من خلال هذا الاختيار يسعى للحفاظ على مكانته مدبراً للمملكة وصاحب الأمر والنهي فيها؛ نظراً لكونه زوج أم السلطان، وقد كان له ما سعى[١٤٥].

كذلك كان للأمير ألجاي اليوسفي مكانة عظيمة في عصر الأشرف شعبان؛ بسبب زواجه من خوند بركة أم السلطان[١٤٦]؛ فبعد هذا الزواج رقّاه السلطان، وجعله أتابك العسكر بالديار المصرية، وأخلع عليه بنظر البيمارستان المنصوري[١٤٧]. وتشير المصادر إلى الارتباط الوثيق بين مكانة ألجاي اليوسفي وحياة زوجته خوند بركة أم السلطان شعبان؛ فبمجرد وفاتها انحطت مكانته وتنكر ما بينه وبين السلطان[١٤٨]. ويعلق ابن تغري بردي على ذلك بقوله: «فعند ذلك عظم قدر ألجاي المذكور من كونه زوج أم السلطان وصار أتابك العسكر، وبهذا استطال ألجاي في المملكة، فإنه قبل زواجه بأم السلطان خوند بركة كان من جملة الأمراء المقدمين لا غير»[١٤٩].

أما الظاهر ططر فقد كان مثالاً واضحاً لاستخدام الزواج من أم السلطان كإحدى الوسائل للوثوب إلى العرش. حيث تشير المصادر إلى أنه بعد وفاة المؤيد شيخ واستقرار ابنه المظفر أحمد على العرش، تزوج الأمير الكبير ططر من خوند سعادات بنت صرغتمش أم السلطان المظفر أحمد، فصار بذلك «عم السلطان وزوج أمه ونظام ملكه»[١٥٠]. وسرعان ما مهد ططر الأمور لنفسه، فعزل السلطان الصغير أحمد بن ططر، ووثب إلى العرش، فانقطعت علاقته بخوند سعادات؛ لأنها كانت مجرد وسيلة للوصول إلى هدفه. والدليل على ذلك تعليق ابن تغري بردي على هذا الحدث بقوله: «فمن يوم خلع ابنها المظفر لم يدخل إليها ططر، ثم طلقها بعد ذلك»[١٥١].

ومن كل ما سبق نخلص إجمالاً إلى أن الزواج كان له أهمية خاصة في حياة سلاطين المماليك. وكان لهذه العلاقة أسباب سياسية أحياناً، وانعكاس على أمور الحكم وإدارة البلاد أحياناً أخرى. كما كان اختيار الزوج أو الزوجة المناسبة أمراً فى غاية الأهمية بالنسبة للسلطان؛ ويكون الزوج – عادةً – من بين كبار الأمراء في حالة أمه وأخته، بينما يكون من بين أهل الثقة والمقربين من السلطان في حالة ابنته. أما ابن السلطان فعادةَ ما تكون زوجته ابنة أحد كبار الأمراء. ومصاهرة السلطان – بصفة عامة – كانت تؤثر تأثيراً واضحاً على مكانة الأمير فتعلي من قدره وترفع من شأنه وتزيد من نفوذه في الدولة.

١٤٣. المقريزي، السلوك، جـ٢/ ق٣، ص٦٢٠؛ المقفى الكبير، جـ٢، ص٢٦؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٠، ص٧٩.

١٤٤. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٠، ص١١٧. ونفس المعنى عند: المقريزي، السلوك، جـ٢/ ق٣، ص٦٧٧.

١٤٥. انظر ترجمة أرغون العلائى عند: المقريزي، المقفى الكبير، جـ٢، ص٢٥–٢٦؛ ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، جـ١، ص٣٥٢؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٠، ص١٨٥–١٨٦؛ الدليل الشافي، جـ١، ص١٠٥.

١٤٦. انظر ترجمة خوند بركة عند: المقريزي، السلوك، جـ٣/ ق١، ص٢١٠–٢١١؛ الخطط، مجلد ٤/ ق٢، ص٦٢٦؛ ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، جـ١، ص٤٧٤–٤٧٥؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، جـ٣، ص٣٥٥–٣٥٧؛ الدليل الشافي، جـ١، ص١٩٠؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١/ ق٢، ص١١٤–١١٥؛ زينب فواز، الدر المنثور، جـ١، ص١٨٢. وأيضاً ترجمة ألجاي اليوسفي عند: المقريزي، السلوك، جـ٣/ ق١، ص٢٣٠؛ الخطط، مجلد٤/ ق٢، ص٦١٨–٦٢٠؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، جـ٣، ص٤٠–٤٤؛ الدليل الشافي، جـ١، ص١٤٨؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١/ ق٢، ص١١٩–١٢٠.

١٤٧. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١١، ص٥٧؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١/ ق٢، ص١١١.

١٤٨. المقريزي، السلوك، جـ٣/ ق١، ص٢١٢؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١/ ق٢، ص١١٧.

١٤٩. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١١، ص٥٧.

١٥٠. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٤، ص١٩٠.

١٥١. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٤، ص١٩٧؛ ونفس المعنى ذكر عند: ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص٧١.

ملحـــــق

السلطان	أم السلطان	أخت السلطان	زوجة السلطان	ابن السلطان	ابنة السلطان	الأمراء	تاريخ الزواج
الظاهر بيبرس				السعيد محمد		ابنة قلاوون	
					ابنة السلطان	حسام الدين لاجين	
الناصر محمد			أردوتكين ابنة نوغي				
			خوند طغاي				بعد ٧١٧هـ
			طلنباي بنت أزبك				٧٢٠هـ
			ابنة نائب الشام				
						تنكز نائب الشام	
					إحدي بناته	أبو بكر بن أرغون	٧٢٢هـ
					إحدي بناته	قوصون الناصري	٧٢٦هـ
					إحدي بناته	طغاي تمرالناصري	٧٢٨هـ
				أنوك		ابنة بكتمر الساقى	٧٣٢هـ
					إحدي بناته	بشتاك الناصري	
				أبو بكر		ابنة طقزدمرالحموي	٧٣٧هـ
					إحدي بناته	الطنبغا المارداني	
					إحدي بناته	ملكتمر الحجازي	
					إحدي بناته	أقسنقر الناصري	
المنصور أبو بكر			ابنة طقزدمر الحموي				
الصالح إسماعيل	أم السلطان					أرغون العلائي	
		أخت السلطان				بيبغا الصالحي	٧٤٣هـ
			ابنة أحمد بن بكتمر				٧٤٣هـ
			ابنة طقزدمر الحموي				٧٤٤هـ
الكامل شعبان	أم السلطان					أرغون العلائي	
			ابنة بكتمر الساقي				
			ابنة أخري لبكتمر				٧٤٦هـ
			ابنة طقزدمر الحموي				٧٤٦هـ
			ابنة أحمد بن بكتمر				٧٤٧هـ
الناصر حسن		زهراء				طاز	٧٥٢هـ
الناصر حسن		أخت السلطان				شيخو العمري	
		أخت السلطان				تنكز بغا الماردينى	
			خوند طولوبية				

السلطان	أم السلطان	أخت السلطان	زوجة السلطان	ابن السلطان	ابنة السلطان	الأمراء	تاريخ الزواج
الأشرف شعبان بن حسين	خوند بركة					ألجاي اليوسفي	
		أخت السلطان				منكلي بغا الشمسي	
		أخت السلطان				بشتاك العمري	
			ابنة الناصر حسن				
			ابنة الأمير طاز				
			ابنة تنكز بغا				
			ابنة طغاي تمرالنظامي				
			ابنة منكلي بغا الشمسى				
الظاهر برقوق			ابنة طشتمر				٧٨٢هـ
			فاطمة بنت منجك				٧٨٦هـ
			هاجر بنت منكلي بغا				٧٨٨هـ
			شيرين الرومية				
			بنت علي بن أسندمر				٧٩١هـ
			ابنة أحمد الطولوني				٧٩٤هـ
			تندي بنت حسين				٧٩٦هـ
			قنق باي التركية				
الناصر فرج بن برقوق			فاطمة بنت تغري بردي			تغري بردي	
		– سارة				نوروز الحافظي	٨٠٤هـ
						مقبل الرومي	
		– بيرم				اينال باي بن قجماس	
						اسنبغا الزردكاش	
		– زينب				سودون الحمزاوي	٨٠٥هـ
						شيخ	
					ستيته	يكتمر جلق	٨١٣هـ
					شقراء	جرباش الناصري كرد	
المؤيد شيخ			خوند قاعة رمضان				
			زينب بنت الظاهر				
			سعادات بنت صرغتمش				
			ابنة تنم الحسني	إبراهيم		ابنة الناصر فرج	٨١٦هـ
					ستيته	الطنبغا القرمشي	٨٢٣هـ
أحمد بن المؤيد شيخ	خوند سعادات					ططر	
الأشرف برسباي			فاطمة بنت قجار				
			خوند جلبان				
			فاطمة بنت ططر				
			ابنة عثمان ملك الروم				٨٥٩هـ
			ابنة يشبك الأعرج				

السلطان	أم السلطان	أخت السلطان	زوجة السلطان	ابن السلطان	ابنة السلطان	الأمراء	تاريخ الزواج
الظاهر جقمق			مغل بنت البارزي			كمال الدين بن البارزي	
			زينب بنت جرباش			جرباش الكريمي	٨٤٢هـ
			نفيسة بنت دلغادر				٨٤٣هـ
			شاه زاده بنت عثمان				
			جان سوار بنت كرتباي				
			ابنة الزيني عبد الباسط			الزيني عبد الباسط	٨٥٥هـ
					خديجة	أزبك من ططخ	٨٥٤هـ
					فاطمة	جانبك الظريف	
						أزبك من ططخ	
		أخت السلطان				تنم أمير مجلس	٨٥٤هـ
الأشرف إينال			زينب بنت علي خاص بك				٨٢٥هـ
				أحمد		ابنة دولات باي	
					بدرية	بردبك الدوادار	
					فاطمة	يونس النوروزي	
الظاهر خشقدم			شكرباي الأحمدية				
			سورباي الجركسية				٨٧٠هـ
الأشرف قايتباي			فاطمة بنت علي بن خاص بك				
الناصر محمد بن قايتباي			مصرباي الجركسية				
قانصوة الأشرفي			خان كلدي الجركسية				
			مصرباي				
		أصل باي				الأتابكي جان بلاط	٩٠٥هـ
الأشرف جان بلاط		أصل باي					٩٠٥هـ
طومان باي			فاطمة بنت علي بن خاص بك				٩٠٦هـ
قانصوة الغوري				ابن السلطان		ابنة نائب الشام	٩٢٠هـ

ثبت المصادر والمراجع

قائمة المصادر

ابن إياس (أبو البركات محمد بن أحمد، ت٩٣٠هـ)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفي، جـ١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٢؛ جـ٢-٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤؛ جـ٤، القاهرة، ١٩٦٠.

ابن تغري بردي (جمال الدين أبي المحاسن يوسف، ت٨٧٤هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة، جـ٧-جـ١٢: تحقيق إبراهيم علي طرخان، د.ت؛ جـ١٣، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، ١٩٧٠؛ جـ١٤: تحقيق فهيم محمد شلتوت، ١٩٧١؛ جـ١٥: تحقيق إبراهيم علي طرخان، ١٩٧٠؛ جـ١٦: تحقيق جمال الدين الشيال وفهيم محمد شلتوت، ١٩٧٢.

—، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، جـ١-٢: تحقيق محمد محمد أمين، ١٩٨٥؛ جـ٣: تحقيق نبيل محمد عبد العزيز، ١٩٨٦؛ ج٤: تحقيق محمد محمد أمين، ١٩٨٦؛ جـ٥: تحقيق نبيل محمد عبد العزيز، ١٩٨٨؛ جـ٦: تحقيق محمد محمد أمين، ١٩٩٠؛ جـ٧: تحقيق محمد محمد أمين، ١٩٩٤.

—، حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين، عالم الكتب، ١٩٩٠.

—، الدليل الشافي على المنهل الصافي، تحقيق فهيم محمد شلتوت، دار الوثائق القومية، القاهرة، ١٩٩٨.

ابن حبيب (الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر، ت٧٧٩هـ)، تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٧٦.

ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد، ت٨٥٢هـ)، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٣.

ابن شاكر الكتبي (محمد بن شاكر بن أحمد، ت٧٦٤هـ)، فوات الوفيات، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠.

ابن العماد الحنبلي(عبد الحي بن أحمد بن محمد، ت١٠٨٩هـ)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨.

الذهبي(محمد بن أحمد، ت٧٤٨هـ)، العبر في خبر من غبر، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

السخاوي (محمد بن عبد الرحمن، ت٩٠٢هـ)، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.

—، التبر المسبوك في ذيل السلوك، تحقيق لبيبة إبراهيم ونجوى مصطفى، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٣.

الشوكاني (محمد بن علي بن محمد، ت١٢٥٥هـ)، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨.

الصيرفي (علي بن داود، ت٩٠٠هـ)، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشي، دار الكتب، ١٩٧٠.

—، إنباء الهصر بأنباء العصر، تحقيق حسن حبشي، الهيئة العامة للكتاب، ٢٠٠٢.

الصفدي (صلاح الدين أبو الصفا خليل، ت٧٦٤هـ)، الوافي بالوفيات، النشرات الإسلامية، جـ١٦، ٢٤.

المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي، ت٨٤٥هـ)، السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ٢: تحقيق محمد مصطفي زيادة، مطبعة دار الكتب، ١٩٥٦-١٩٥٧؛ جـ٣، ٤: تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، مطبعة دار الكتب، ١٩٧١-١٩٧٢.

—، المقفى الكبير، تحقيق محمد اليعلاوي، بيروت، ١٩٩١.

—، درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، تحقيق محمود الجليلي، دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٢.

—، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جـ٣-٤، تحقيق أيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، ٢٠٠٢-٢٠٠٣.

قائمة المراجع

أحمد عبد الرازق أحمد، المرأة في مصر المملوكية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩.

زينب فواز، الدر المنثور في طبقات ربات الخدور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٩.

سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٣، ١٩٩٤.

—، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، القاهرة، ١٩٨٧.

علي إبراهيم حسن، دراسات في تاريخ المماليك البحرية وفي عصر الناصر محمد بوجه خاص، مكتبة النهضة المصرية، ط٢، ١٩٤٨.

قاسم عبده قاسم، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي عصر سلاطين المماليك، القاهرة، ١٩٧٩.

—، عصر سلاطين المماليك، دار الشرق، ١٩٩٤.

منى محمد بدر محمد بهجت، أثر الحضارة السلجوقية في دول شرق العالم الإسلامي على الحضارتين الأيوبية والمملوكية بمصر، جـ١، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ٢٠٠٢.

محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، ط١، ١٩٥٦.

محمود الحويري، مصر في العصور الوسطى، ط١، دار عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، ١٩٩٦.

وليم موير، تاريخ دولة المماليك في مصر، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن، مكتبة مدبولي، القاهرة، د.ت.

Doris Behrens-Abouseif, « The Mahmal Legend and the Pilgrimage of the Ladies of the Mamluk Court », *Mamluk Studies Review* 1, 1997.

AnIsl 42 (2008), p. 25-47 ar. ʿABD AL-NABĪ (Hiba Maḥmūd Saʿd)
. Al-zawāğ fī usar salāṭīn al-Mamālīk.